الصورة الساخرة في قصيدة الهجاء في العصر العباسي

د.محمد شاكر ناصر الربيعي
جامعة بابل / رئاسة الجامعة

المقدمة

الحمد لله عدد الرمل والحصى وزنة العرش إلى الثرى والصلاة والسلام على رسول المصطفى وعلى آله خير الورى وعلى أصحابه النجباء وبعد فأن العصر العباسي عصر علم وأدب تميز من الماضي بالامتزاج الحضاري والثقافي فكان أن تولدت الصور في الأدب وتعددن بحسب ألوانه , وفي هذه الدراسة نسلط الضوء على الصورة الساخرة في قصيدة الهجاء في هذا العصر ، والذي دعى الباحث أن يختار العصر العباسي هو تلك الحداثة والجدة في استخدام الصور إذ كان الهجاء في العصر العباسي يكاد أن يكون مجموعة من هذه الصور الساخرة . فتكون البحث من ثلاثة مباحث، أما الأول منها فتحدث عن الهجاء وصوره في الأدب بدءا من الجاهلية فصدر الإسلام ثم الأموي وصولاً إلى العصر العباسي. وإما المبحث الثاني فتناول الصور الساخرة في أقسام الهجاء واعتمد الباحث جميع أقسام الهجاء التي تعارف عليها النقاد وفي المبحث الثالث فقد عرجنا على الخصائص الفنية والأسلوبية التي تميزت بها الصورة الساخرة في قصيدة الهجاء في هذا العصر والتي تمثلت في تطوير بعض الصور والتجديد في الصور الأخر ، أما مصادر البحث فكانت بعض دواوين الشعراء، حيث وقف الباحث عند القصائد والمقطوعات التي من شأنها أن تبين للقارئ هذه الانعطافة الجديدة في غرض الهجاء ، وهي كون الهجاء في هذا العصر أصبح يميل إلى رسم الصور المضحكة على المهجوين ، بدلاً من الوقوف عند كل ماتأنفه الطابع العربية وهو ماكان سابقاً. وبهذا نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق جميع الباحثين الذين يقفون عند تراثنا الثر، فينهلون منه ماشاء الله ، وهو الموفق عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون

المبحث الأول

الهجاء وتطور صوره في الأدب

تناول الهجاء غير قليل ممن كتب في حقل الأدب وأرخ له ، أو تناوله بفنونه المتعددة قديماً وحديثاً ، وتعارف عليه الناس على انه فن الشتم والسباب ، ويذكر قدامة انه نقيض المدح وربما خالفه في ذلك بعض المؤرخين[1] . والهجاء بمدلوله الاصطلاحي لا يبتعد كثيراً عن المدلول اللغوي[2] . وهو في الحالتين يدل على ما يراد في فهمه . ويمكن أن نخلص إلى تعريف جامع شامل وهو ان الهجاء أدب عنائي يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء ولا فرق في ذلك ان يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب[3].

ما تقسيمات الهجاء فقد تعددت بإزائها أراء الباحثين لكن التقسيم الذي يسلم به الكثير هو ان يقسم إلى ثلاثة اقسام : الهجاء الشخصي والهجاء الأخلاقي والهجاء السياسي ، وربما تتداخل أنواع الهجاء الأخر في هذه التقسيمات أو تنفرد مستقلة لتمثل لوناً من الوان الهجاء . كان الهجاء في أقدم صوره هجاءا شخصياً يعتمد التعرض لأفراد القبيلة والانتقاص منهم بما تعيبه الأخلاق العربية وكان في الجاهلية لايعدو ان يكون تجريد المهجو من كل ماتميز به العربي من شجاعة وكرم وهو اقرب للسباب والهجاء في معظم الأحيان متأثراً بالأهواء الشخصية ، بعيداً عن العدل والإنصاف لأنه لايرتقي إلى مشكلات الحياة العامة إلا في قليل من نواحيه[4] . فقد ارتبط الشاعر بالقبيلة ارتباطاً وثيقاً وأخـذ يذب عنها ويتعرض لكل من يحاول ان ينال منها فيذكره هاجياً إياه ساخطاً عليه ، يقول الجاحظ في معرض روايته عن أبي عــروة بن العلاء كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجته إلـى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزتهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم[5]. فالشاعر لسان قبيلته وهو الذاب عنها والهاجي أعداءها ، وإذا أراد ان يهجو غيره في الجاهلية فليس له إلا ان يذكر ما يعيبه ويقلل من شأنه ومما يعيب العربي آنذاك هجي به ما هو راجع إلى الضعف والهوان وخمول النسب والبخل والفقر وكونه يرعى المعز والشاء ولا يرعى الإبل مثلاً . ويهجى في ركوبه الحمير وتركه ركوبه الخيل ، كما كان العربي يهجى في امتهان نسائه الرعي والكد خارج البيت ويهجى بالجبن والقعود وعدم الخروج للحرب والقعود عن الثأر وقبوله الدية، كما يهجى بالعجز عن حماية الجار ويهجى بسبب عدم الضيافة والتهاون في إكرام الضيف ، كانت هذه الصفات التي يعتبرها العربي مشينة ويمكن له يهجي بها من أراد. ويذكر ان الهجاء مرتبط بالسحر وان بدايته كانت من الطقوس ويعقد (علي البطل) مقارنة بين المديح والهجاء فيقول(إذ كان المدح قد اخذ صوره دينية مثالية ، هي صورة الأب المعبود - اله القمر - فـأن الهجاء قد بدأ طقساً سحرياً وممارسة قائمة بذاتها)[6]. وقد ذهب هذا المذهب الدكتـور محمد محمد حسين معتمداً على ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية في هذا الصدد فيقول(وقارئ القرآن الكريم والنصوص العربية القديمة يجد الأدلة الكثيرة على صحة تذهب إليه ، فالعرب أو لا لم يفرقوا بـين القرآن الشعر وتعاويذ السحرة)[7] والذي يهم البحث ان الهجاء كان في بدايته متواضعاً لا يعتمد كثيراً الحس الفني والتطوير البليغ وهو مرتبط بالسحر

والعادات والتقاليد القديمة التي عاشها الشعراء العرب فوضعوها في ثنايا قصائدهم، وبعد ذلك انفصل الهجاء عن السحر وعن الدين وأصبح مدعاة للسخرية والاستهزاء من الهجو ،وهذا ما لاحظه الاستناد كارل بروكلمان[8].

إذن فقد كانت المقاييس التي يستند عليها الشعراء في ذلك هـي المقاييس الخلقية والاجتماعية المألوفة عند العرب ، كالكرم والشجاعة والذود عن الكرامة والعفة والإيـثار وغير ذلك مما هو معروف مشهور[9] . ثم يأتي الإسلام ليكون ثورة تغير الواقع العربي والحياة الاجتماعية ولا بد أن ينال الأدب شيء من هذا التغيير ، أما فن الهجاء فأنه بقي محافظاً في باديء الأمر على تلك المعاني التي كانت في الجاهلية، وأنصرف شعراء الإسلام يدافعون عنه وهم يهجون المشركين وقد أدرك هذه المسالة رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد نظم الدعاية حول الدين ، وعني بالرد على شعراء قريش منتدباً لذلك بعض الشعراء من المسلمين ، فكان الهجاء والقتال متلازمين في نشر الدعوة كما يقول حسان :

لنا في كل يــوم مـن مــعد — سباب أو قتـال أو هــجاء

فنحكم بالقوافي مــن هجانا — ونضرب حين تختلط الدمـاء

إلا ابلغ أبا سفيان عنـــي — فـأنت مجوف نـخبٌ هواءُ

بأن سيـوفنا تركتك عبداً — وعبـــد الدارِ سادتها الإماءُ

هجوتَ محمداً، فأجبتُ عنهُ — وعند الله في ذاك الجزاءُ

أتهجوه ولست له بكفءٍ — فشــر كما لخير كما الفداءُ

هجوت مباركا، براً حنيفاً — أمين الله ، شيمته الوفاءُ

فمن يهجو رسول الله منكم — ويمــدحه ، وينصرهُ سواءُ[10]

وثبطت الدعوة الإسلامية في حياة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) الكثير من ألوان الهجاء إلا ما كان يهجى به المشركون ولكن هذه الحال لم تدم فما ان انتقل النـبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى جوار ربه حتى دبت الفتنة بين المسلمين فأصبح كل فريق ينتصر لفريقه هاجياً غيره وأول ما كان من ذلك ما حدث فـي الردة فقد قال الحطيئة :

اطعنا رسول الله إذ كان بيننا — فيا عجباً ما بال دين أبي بكر

أيورثها بكراً إذ مات بعده — فتلك إذن والله قاصمة الظهر[11]

والذي يريد البحث ان يسلط الضوء عليه هو هل كانت ثمة صور ساخرة في هذا العصر ، فجواب هذا التساؤل هو ان يقال : نعم كانت هناك صور ساخرة وخصوصاً تلك التي تصف المشركين ، وقد اعتمد الشعراء المسلمون على ما ينص عليه القرآن الكريم من تصوير لأحوال المشركين فأحيانا يعتمد الـقرآن علـى تصوير الحال، وإبرازه واضحاً مجسماً وله في ذلك مسلكان فهو تارة يعمد إلى التمثيل، فيـقدم صوراً ساخرة وتارة أخـرى يسلط الضـوء على ما يتآمرون به الظلام[12]. والذي يهمنا هو التصوير الساخر لحال المـشركين فمنه قوله تعالى:(وإذ رأيتـهم تعـجبك أجسـامهم وأن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشـب مسند يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فأحذرهم قاتلهم الله أني يـؤفكون)[13]. ولابد ان يكون الشعـراء قد تأثروا بما جاء في القرآن الكريم من صور ساخرة وفي هذه الآية قد تأثر حسـان بما وجد فيها مـن وصف من للمشركين ولعله قد نظر إلى صدر الآية حين قال :

لا بأس بالقوم من طول ومن عرض — جسم البغال وأحلام العصافير[14]

(وقد تأثر جرير في قوله تعالى : يحسبون كل صيحة عليهم ، فقد قال :

حملتْ عليك حماة قيسٍ خيلها	**شعثاً عوابس تحملُ إلا بطالا**
مازلت تحسب كل شيء بعدهم	**خيلاً تشدَّ عليكمُ ورجالا**
زفر الرئيس أبو الهديل أبادكم	**فسبى النساء وأحرز الاموالا**
قال الاخيطل إذ رأى راياتهم	**يامار سرجس لانريد قتالا**
هلا سألت غشاء دجلة عنكم	**والخامعات تجمع إلا وصالا**
ترك الاخيطل من سفاهه رأيهِ	**منحاة سانيةٍ تيرُ محالا [15]**

وفي القرآن الكريم الكثير من الصور التي وصف بها المشركون وأحوالهم وتجد أروع التشبيهات في هذا المجال في قوله تعالى :(أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في أذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذ اظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بمسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شيء قدير) لذا فأن الهجاء في هذه المدة من الزمن أي بعد انتصار الإسلام بدأت معالمه الجديدة تتضح فقد كان كما هو معروف يميل إلى النزعة البدوية والوثنية وكان في اغلبه سباب وانتقاص من المهجوين الذين اسلموا على هجر السباب والموضوعات المتمثلة بالنزعة البدوية والوثنية[16]. وكان هناك ثمة صور ساخرة إلا إنها لم تكن بمستوى من الإبداع والتصوير الفني (وفي الموضوعات الهجائية نزوع للوصول إلى تنوع كلامي أكثر من المهارة في اختراق موضوعات طريفة)[17]. ولو تم التقدم في الزمن لنصل إلى العهد الأموي الذي اشتدت فيه الصراعات والنزاعات وأصبح مسرحاً تدور في فلكه أحداث سياسية ترتب عليها أثراً مباشراً في الأدب والهجاء بصورة خاصة ونجد أنفسنا أمام فن جديد يمثل قمة ما وصل إليه الهجاء في العصر الأموي إلا وهو النقائض التي مثلها الشعراء الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل وان ما يريد البحث تناوله هو الهجاء، والهجاء الساخر منه بالذات الذي يحمل تلك الصور التي رسمها الشعراء، وان لم تكن النقائض تقصد الهجاء بعينه إذ انه(لم يكن الدافع الأول إلى أنشاد هذه المجموعة الضخمة من الشعر)[18]. ولكنها نقلت واقعاً أدبياً ضخماً مثل لنا تطوراً في الأساليب الساخرة إذ إن الشعراء عمدوا إلى أيراد مثل هذه الصورة المضحكة خصوصاً في الهجاء فأنه يروى (إن جرير قال لبنيه إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة، وإذا هجوتم فخالفوا) وقال أيضاً (إذا هجوت فأضحك[19]) فقد قلبت النقائض الواقع الاجتماعي الذي كان يسود المجتمع الأموي والذي تمثل بالابتعاد عن الدين وعدم المبالاة في السباب بل وفي إيراد الفحش، وإذا أراد الباحث أن يقف عند هذا الضرب من النقائض فلا يجد إلا ما تستهجنه الأسماع ولكن لابد من إيراد مثال على هذا الفحش والمبالغة في البذاءة ومن قول جرير :

إذا ماكنت ملتمساً نكاحاً	**فلا تعدل ب . . . بني ضرار**
وان لاقيت ضبيا فـ.....	**فكل رجالهم رخو الختار[20]**

أن هؤلاء الشعراء يفتنون في هذه المعاني و خروجها في شتى الصور ويولدوا منها المعاني والأخيلة وعمدوا إلى إبراز لون جديد يتمثل في الحوار الساخر والدعاية المضحكة ومن أمثلة الهجاء الذي يعتمد النكتة المضحكة والصور الساخرة قول جرير :

لو يدفن التيمي ثم دعوته	إلى فضل زاد يسعى من القبر
وآية لؤم التيم أن لوعددتم	أصابع تيمي نقصن عن الشعر
ولو شئت غم اليتيم عمرو ومالك	وطم عليهم قمقمات من البحر
ولم تدر تيم ما الاعنة والقنا	ولم تدر تيم ما الوراد من الشقر
تفضل تيم في البراد ، ولا يرى	فوارس تيم معلمين على الثغرِ
ولايحتبي اليتيمي قدامَ بيتهِ	ولا يستر أليتيمي إلا على القدرِ
وألفيت تيماً لم أجد حسباً لهم	وعدوت سعداً والقبائل من عمروِ
وقد عمرت تيم زماناً ومايرى	لنسوة تيمٍ من حفافٍ ولا خدرِ[21]

إن هذه النقائض التي مثلت الشعر الشخصي كانت محدودة الغرض بسبب تحكم الظروف التي أدت إلى إنشاءها من قبل الشعراء،فهي تفاخر بالأقوام وبالأنساب وليس هناك ثمة مقارنة بين الهجاء في هذه النقائض وبين ما سنذكره في العصر العباسي لان لكل ظرفه والظروف التي كانت في العصر الأموي ليست هي التي جعلت من الهجاء وصوره في العصر العباسي بهذا اللون من التجديد الذي سوف نلمسه من خلال معرفة الصورة الساخرة في العصر العباسي ، فقد تطور الهجاء من هذا العصر بشكل يكاد يختلف تماماً عما كان عليه في الجاهلية وصدر الإسلام وسواءٌ ذلك في العهد الأموي، ومما يميز الهجاء في العصر العباسي هو ذلك الإقذاع في رسم الصورة الساخرة، فقد حكى محمد بن سلام الجمحي عن يونس بن حبيب انه قال :(أشد الهجاء التفضيل. وهو الإقذاع عندهم)[22] فقد بالغ الشعراء العباسيون في هجائهم وكان بسبب طبيعة الجديدة والتي كانت مليئة بالتناقضات نتيجة لتنوع الأجناس في هذا المجتمع. فقد لعب الموالي دوراً بارزاً في هذا الفن، وكان ما يدور في حانات بغداد وأماكن اللهو والمجون ما يبعث على تلون الفنون. كما أن الغناء ومجالسه قد برز بشكل ملحوظ بل وليس له سابق في المجتمع العربي وخاصة بعد ظهور الإسلام. كما أن تعدد الثقافات ووجود المترجمات قد وسع من أفاق الشعراء واطلاعهم على الآداب العالمية، وهذا بعثم إلى استعارة الصور وتوظيفها في شعرهم. كل هذه الظروف وغيرها آدت إلى تطور الهجاء بصورته النهائية في العصر العباسي . فأصبح الشعراء عندما يصورون الطبيعة في قصائدهم يعمدون إلى استعارة أجمل الصور بأجمل التعبيرات وأرق العبارات وعندما يهجون من أرادوا هجائه فأنهم يوردون أقبح ما يمكن أن يرد وصف إنسان فأنه(ليس شيء إلا وله وجهان وطريقان، فإذا فرحو اذكروا أحسن الوجهين وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين)[23]. وقد تمثل ذلك عند اغلب الشعراء العباسيين فنجد الهجاء عند بشار بن برد في اغلبه مقذع كان يستمد معانيه ويتفنن في استنباطها من الحضارة الجديدة وتبدل المكان والزمان (وغير عجيب أن يكون هذا الهجاء مقذعاً فأن أخلاق بشار لا تستنكره وأخلاق عصره لا تتأباه)[24] وتلاحظ الصور الساخرة وهي تملأ هذا الفن الأدبي وقد برع فيه بشار بن برد الذي كان هجاؤه متميزاً كثيراً من الفنون الأخرى في شعره فهو شاعر يتمتع بتلون فنون الشعر(ولكن قوة بشار تتجلى في شعر الهجاء)[25] ولابد لهذا الهجاء أن يتمتع بالصورة التي تكون ساخرة موجعة لان بشاراً (يرى أن الهجاء يجب أن يكون موجهاً ليكون مخوفاً ولياتي بالنتيجة المقصودة وإلا فلا فائدة من نظمه)[26] وقد فعل مطيع بن إياس ما فعله بشار في هجائه ، فأن الحداثة أثرت في الهجاء كما في غيره من أغراض الشعر (وكان أول من يمثلون الشعراء أو المحدثين)[27] ومطيع ابن إياس ، سار في هذا الركب أبو نؤاس إذ تملأ ديوانه الصور الساخرة التي تمثلت في فن الهجاء وهجاء أبي نؤاس ثلاثة أقسام سياسي وقبلي وشخصي ومنه العبثي[28]. وفي هذه التقسيمات تتضح الصور الساخرة بارزة ، فقد برع أبو نؤاس في رسمها فكان هجاؤه (اصدق شعوراً وأخصب خيالاً وأظرف لغة وأسلوباً))[29] وهو كغيره من الشعراء الذين عاصروه فأن هجاءه جاء، مقذع احياناً يصيب ببادرته المحز وأظنه يميل كثيراً إلى الفحش وهذا الاتجاه الأخير أيضاً جاء مع فكاهاته ومجونه[30]. وهذه الفكاهات هي التي تمثل الصور الساخرة التي يشير إليها البحث ولابد أن تكون الإشارة هنا إلى أن اغلب الشعراء العباسيين الذين مثلوا

مختلف الفرق والفئات ، لم تخلُ قصائد الهجاء عندهم من هذه الصور الساخرة فنجد في هجاء البحتري الكثير من هذه الصور ونجد منها في شعر دعبل الخزاعي وقد (كان دعبل يحب التكسب كغيره من شعراء العصر العباسي، وأتوتي من خبث اللسان ولـؤم الطباع ما جعله عند الناس بغيضاً مقيتاً)[31] كما أن التكسب في الهجاء قد اشتهر في العصر العباسي وأصبح ظاهرة تثير الاهتمام واعتماد دعبل على الهجاء للتكسب جعله يهيئه قبل أن يجد المهجو[32] . كل هذا جعل من الشعراء يعيدون في أنفسهم صورهم لكي ينهالوا بها على مجويهم ويرشقوهم بها كرشق السهام وأن أبرع من صور هذه الأساليب ابن الرومي الذي طالما رسم صوراً مضحكة لمهجويه وقد فاق معاصريه في الشهرة فـأن (هجاءه لا يقتصر على القذف والطعن والسخرية بل يتعداه إلـى وصف أخلاق المهجوا وتصوير أشكاله حتى يبرز مثلة شوهاء مضحكة)[33] فهو يترقب كل ما يمكن أن يجده من قصر في خصومه ثم ينهال عليهم بقوافيه التي تصفه وضفاً لاذعاً(فهو يلمح بالنظرة الحادة النقائض والعيوب الجسمانية على وجه الخصوص عند خصومه فيصوغها في هجاء مرير لاذع)[34] وهو لا يبتعد بدوره عن الشعراء من بذاءة في الألفاظ وفحش في التصوير فان هجاءه (يقطر سماً ويتطاير شرراً هذا إلى بذاءه شديدة فيه وميل واضح إلى الاعتداء) [35] إن هذا المزاج الحاد الذي اتصف به ابن الرومي جعله يرسم لمهجويه هذه الصور الساخرة التي لم يترك فيها عيبا إلا ذكره ولا نقصاً إلا ورسم له لوحة وصورة (ليثير الضحك والإشفاق على من يتناوله منهـم إذ يصنع بهم صنيع أصحاب الصور الكاريكاتورية فهم يضعون رأساً كبيراً على جسم صغير أو يخالفون، في أعضاء الجسم)[36] ولم ينفرد ابن الرومي في هذه الصورة الساخرة بل تجد هذه الصور أصبحت في العصر العباسي لا تفارق قصيدة الهجاء التي أصبحت هي بذاتها عبارة عن مقطعات قصيرة وليس للبحث هذا أن يستقصي جميع الشعراء فلو كان ذلك لتطلب مليء عشرات الصفحات فهجاء المتنبي والبحتري و عجرد وأبي الشمقمق وأبي تمام وغيرهم من الشعراء العباسيين مليئة بهذه الصور الساخرة ، وأن النتيجة التي يمكن الركون اليها في تدرج وتطور الصورة الساخرة في قصيدة الهجاء هي ان هذه الصور كانت في بدايتها بسيطة بدائية مستمدة من الواقع العربي المتواضع والمرتبطة بالسحر وأكثر من مثلها في الهجاء الحطيئة ثم تطورت بعد ذلك وبعد نزول القرآن بالذات حيث يعمد الشعراء إلى تقليد هذه الصور التي وردت في القرآن الكريم فـي تصوير حال المشركين ثم استمد الشعراء بعد ذلك صورهم في العصر الأموي من طبيعة الحياة التي ابتعدت قليلاً عن الواقع الإسلامي الذي يدعوا الى التقيد بتعاليمه والالتزام بالخلق الذي جاء به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في النهي عن السباب والفحش وتمثل هذا في شعـر النقائض التي مثلت قمة ماوصل إليه الشعر في هذا العهد وما ان دخل العصر العباسي حتى أتاحت هذه الموجة من التلون الثقافي والحضاري الفرصة للشعراء ان يستعيروا صورهم الساخرة من طبيعة المجتمع الذي عاشت فيه فأصبحت الصورة الساخرة بمستوى عالٍ مـن التعبير الفني الذي اختلف عن ما كان عليه فيما سلف .

المبحث الثاني

الصورة الساخرة في أقسام الهجاء

لقد سبب الامتزاج بين الثقافات في العصر العباسي ثورة للتجديد في شتى المجالات الحياة، يرافق هذا الامتزاج حركة عرفت في الأدب بحركة التجديد وكان لابد من ان ينال فن الهجاء غير قليل من مظاهر التجديد وقد ظهر طراز جديد في الشعر الهجاء لم يكن ان مألوفاً سابقاً ، وهو مساير لهذه الحركة في الشعر، فـأصبح الهجاء يعتمد على السخرية من المهجوا وإضحاك الناس عليه والاستهزاء به، وهو من ناحية أخرى يسـوغ لنا طبيعة الحياة الاجتماعية وما كان يدور فيها من جوانب الفكاهة والهزل . ويبدو أن الهجاء الساخر قد جرى مجريين[37] عند شعراء التجدد احدهما مجرى السخرية المكشوفة الصريحة وهي التي يتناول فيها الشاعر مهجوه فيخرجه في شعره على صورة تبعث في النفس الهـزء والضحك ويعبث به عبثاً واضحاً يشبه ما يعرف في أيامنا بفن الكاريكاتير ، والطراز الأخر الذي اتسم به الهجاء الساخر والذي كاد أن يكون جزءاً من خصائصه الفنية المميزة وهو في ظاهره جد وفي باطنه هزل وهو ماعرف في علم البديع بعد ذلك بحسن التعليل . ولا بد لنا ونحن تناول تطور مفهوم دلالات الصورة الساخرة في قصيدة الهجاء في هذا العصر ان نتبع هذه الصور التي رسمها الشعراء العباسيون من خلال الهجاء فنقف عند الصورة الساخرة في كل قسم من أقسامه ، ليتسنى لنا معرفة ما يميز الصور الساخرة في العصر العباسي من غيرها لكي تتضح لنا معالـم تجديد في الشعر بصورة عامة وفي الهجاء بصورة خاصة .

1- الصورة الساخرة في الهجاء الشخصي :

أ ـ التعرض للأعراض والانسياب :

يبدو أن الهجاء الشخصي من أقدم أنواع الشعر الهجائي[38]. وغالباً ما يتأثير بالأهواء ويرتبط بنفسية الشاعر وقابليته على الهجاء وهو اقرب للسباب وكان في الجاهلية ضئيلاً قليل الخطر[39] . ثم تطور بعد ذلك

وبشكل مباشر في النقائض وأصبح كما يقول الدكتور طه حسين(من أهم الفنون الذي ذاعت في العصر الأموي)[40] وتطور الهجاء الشخصي تطوراً خطيراً فأصبح الشعراء يبالغون في استخدام الألفاظ التي تخدش الحياء وترفضها الآداب العربية ، وقد برز في إيراد الصور الساخرة في هذا الجانب الشاعر ابن الرومي، وقد سار في هذا السبيل فبلغ من الفن مبلغاً عظيماً جاوز فيها مراتب معاصريه في إيراد الصور التي تعبر عن سوء حال مهجوه وتفننه في تخليها وتوظيفها في شعره فتراه يقول في هجاء قوم من آل طاهر

ولا تبخلوا عني بعرضِ فكــلكم بني طاهرِ بالعرض غير بخيل

صلوني بأعراضِ لكم قد تمزقت تمــزق اطمار على ابن سبيل[41]

فهذه الصورة بارعة ، فلو تأملنا الاطمار البالية الممزقة وتخيلنا إنها متناثرة متمزقة من كل طرف وقارناها بأعراض القوم لوجدنا انه رسم صورة مثيرة للسخرية في اعرض مهجويه، وقد بالغ ابن الرومي في مثل هذا الهجاء عندما كان يهجو خالد القحطبي، وقد قال في أمه ما لم يقل شاعر ويوغل في إيراد هذه الصور بمثل هذه الألفاظ إذ يقول :

إذا ما ونى عنها الزناة دعــتهم شقاشق من أرحامها الخضر تهدرُ

احاشي التي تنمي إليها أو انتحي بها أمك الأخرى التي سوف تظهرُ

عساك أفادتك الدعارة نخوة فغرتك مني الهجول مغررُ

وكم طامح ذي نخوة قـد رددته إلى قيمة دون الذي كان يقدرُ

أرحت عليه حلمه وهو عـازب وقومت منه درْأهُ وهو اصعرُ[42]

فهي تدعو الرجال إليها حين يلوون عنها وجه الطلب ، فكان جسدها لا يبصر على طعام واحد، وهذا من الدعارة بحيث يمس نخوة المهجو ويفعل في كرامته فعل النار في الهشيم،وقد بالغ ابن الرومي كثيراً في إيراد مثل هذه الصورة الساخرة في هجائه لابن الخبازة أيضاً. ولو ابتعدنا عن ذكر السيء جداً من الألفاظ سنجد أنفسنا أمام صورة أخرى تدعو إلى السخرية إذ يقول في هجائه لابن الخبازة .

شمل الناس عدل امك حتى سارفيهم كسير جور سدومِ

لو رآك الرجال شيئاً نفيسا كثَرتْ فيك هثهثاثِ الخصومِ

كيف نـدعوهم لآبائهم ربيّ ومنهم أمثـال هذا الـزنيمِ

كـل فحل أبـوك عدلاً من الـ ـله وعيسى بلا أب كالـيتيمِ [43]

فقد هتك هنا كل حجاب ، وأصاب في وصف مهجوه بأقبح الصور وهذا نجده كثيراً في ثنايا ديوانه، ونتجاوز ابن الرومي إلى المتنبي فنجده يصول في ميدان الهجاء فيورد صوراً ساخرة ليست بحاجة إلى تعليق وإنما تنطق هي بما يدور فيها من ملاحم السخرية يقول المتنبي في معرض هجائه لابن كيغلغ :

يحمي ابن كـيغلغ الطريق وعرسه مابيـــن رجليها الــطريق الأعظمُ

أقم المسالح فوق شـفر ســكينه إن المـنيّ بحلقتيها خضرمُ [44]

وقد سلك أبو نواس صوراً جديدة في هجائه الساخر فهو لا يذكر الإعراض ويتناولها بالفحش الظاهر، ولم يتعرض لذكر الأعضاء ويقسو في العبارة أنما استحدث صورة فيها أجمل العبارات وأصابت الهدف فتراه يقول

بـمـا أهجوك لا ادري لسـاني فـيك لا يجـــري

إذ فكرت فـي عرضـ ك أشفقـت على شعري (45)

وسار مع هذا الـركب من الشعراء بشار بن برد لم يخرج عن المعني والصور التي أوردها معاصروه ،وديوانه يشهد الكثير من اهاجيه . فقد تعرض لذكر الأم والأخت وبالغ أيضا في إيراد كل ما يثير السخرية حول مهجويه ، كذلك كان البحتري كثير الفحش إذ يتغدر التصريح بكثير من الشعر لما له من اثر مخدش للحياة ومن ألفاظ صريحة ثم لكثرة ما قيل حتى انه ليكاد معبراً عن الواقع الاجتماعي الذي شهدته بغداد آنذاك من فحش ومجون وسوء طباع .

ب ـ ذكر العيوب الخلقية :

لقد حلق أبو نؤاس في الوصف والرسم عالياً ، وليس غريبا لهذا الفنان الذي أحب الجمال وعشقه وتعلق به فوصفه ، أن يشمئز من القبح ويهجوه فهو كما جاء بصوره الرقيقة فـــي حبه للجمال فقد أورد الصور الساخرة في هجائه وذكره للعيوب الخلقية فمن هذا الباب ما قاله في امرأة .

وجه بنات كـأنه قمـر يلوح في ليلة الثلاثين

والخـد من حسنـه وبهجته كطاقة الشوك في الرياحيـــن

مبـادر من جبينـها نسم في الطيب يحكي مبازل العين

والفم من ضيقهِ إذا ابتسمت كأنه قصيعة المساكينِ

لـها ثنايا تحكى ببهجتها وحسنِـها السُنَ الموازينِ

وحسبك الحسنُ في ضفايرها مثل الشمـــاريخ فـي العراجين

والجـيدُ ريتٌ لمن تأملّه أشبه شيء بجيـد تـنينِ

ومنكباها في حسن خَلقِـهما في مثلِ رمانتين مـــن طينِ

والبطن طـاوٍ تحكـي لطافتـهُ ماضمنوهُ كتبَ الدواوينِ (46)

فهو يصورها بأبشع صورة ، ثم إننا نجد في هذه القصيدة وفي قصائد غيرها خاصية لم تكن موجودة سوف نقف عندها في الخصائص الفنية للصورة . ونبقى مع أبي نؤاس فهو يصور مهجوه بصورة لا تخطر على بال ولا تمر بخيال ، فـي موضع أخر يصف المغنيات ويصورهن كالخنافس خلف العيدان وغناؤهن يهيج الزمهرير فيقول .

إذا ما كنت عند قيان مـوسى فعند الله فـــأحتسب السرورا

خنافسُ خلف عيدانٍ قعودٌ يطولُ قربها اليوم القصيرا

إذ أغنّين صوتاً كان مـوتاً وهجت به عليك الزمهريرا (47)

وكذلك يلح أبو نؤاس على الصلع فيقول في هجائه لأبي حفص :

ياصلعة لأبي حفص ممـردة كـأن سـاحتها مـرآة فولاذ

ترن تحت الأكف الواقعات بها حتى ترن بها أكناف بغداد[48]

فأي صورة هذه التي رسمها أبو نؤاس فقد أبدع في أثاره السخرية فأوقع فـــي نفس كل من هجاه الإثارة والسخط وقبحهم أمام الناس بكل ما يستقبح بالهجاء والسخرية فهو بارع في ريشته الغزلية وهو موفقٌ في رسم لوحة كاريكاتورية عن مهجويه. وليس لمهجوه إلا أن يتوارى عن العيون لشدة ما أصابه من مغالاة في الوصف ورسم الصورة القبيحة الساخرة التي تجعل الناس ينفرون منه ولا يودونه، يقول ابن الرومي في هجائه لأبي قرة

أقصرٌ وعورهُ وصلع في واحد

شـواهدٌ مقبولةٌ نـاهيك من شـواهِـدِ

تخبرنا عـن رجلٍ مستعملُ المقافِدِ

أقماه القفد فـأضـ حى قائماً كـقاعدِ

فكفّ مـنـه بصراً مثل السُراج الواقدِ

وحـتّ منـه شعراً اسـودٌ كالعنـاقِدِ[49]

نجد ابن الرومي قد اخرج أبا قرة بأقبح حال وبأسوا صورة وهو يمضي في رسم لوحاته الساخرة ليصل إلى غرضه في هجاء من أراد هجاءه وهو كثيراً ما يرسم صورا ساخرة للحى فتجد في ديوانه الكثير من هجائه هذا ومن أهاجيه في هذا الجانب صورة ساخرة قوله :

أن تطل لحية عليك وتعرض فمخـالي معروضعة للحمير

علق الله في عنـادك مخـلا ة ولكنـها بغير شعير

لو غدا حكمها اليّ لطارتْ في مهب الرياح كـل مـطير

القها عنك ياطويلة اولاً فأحتسبها شرارةً فـي السعير

ارعِ فيها الموسى فانك مـنـها يشهـــد الله في آثـام كبير[50]

ونجد الشعراء العباسيين يسوقون هذه الصور للإيقاع بالمهجو وكـأنهم اتفقوا على أن يكون الهجاء بصيغة صور ساخرة فحسب ، فهذا مطيع بن إياس يهجو أباه فيقول :

هـذا إياس مقبلا جاءت به إحـدى الهنات

هو زفـوه ، وانفه كلمنا في إحدى الصفات[51]

وهناك الكثير من هذه الصور تملأ الدواوين وكتب التأريخ والكتب التي تناولت الأدب قديماً وحديثـاً ، ولو رجعنا إلى ديوان الحماسة في باب خدمة النساء لوجدنا كماً غزيراً من هذه الصور التي مثلت واقعاً أدبياً مميزاً في العصر العباسي .

2- الصور الساخرة في الهجاء الأخلاقي :

يشمل الهجاء الأخلاقي العادات والطباع والانتقاص من كل ما يجب أن يتحلى به الفرد خصوصاً العربي الذي عرف عنه الكرم والشجاعة وقرى الضيف وقد كان هذا اللون في الجاهلية والإسلام يعتمد الصدق نوعاً ما فأن الشاعر عندما يتعرض لمهجوه يذكره بعادات عرفت عنه أو عن قبيلته وما إن حل العصر العباسي حتى كان هذا الشعر في اغلبه مصطنعاً متكلفاً لا يعتمد الحقيقة وإنما يعمد فيه الشاعر إلى إيراد مختلف الصور للإيقاع بمهجويه فهو بذلك لا يصف حقيقة الناس ولا يجعل الشعر في مستوى من الصدق كما في بعض الشعر الجاهلي والإسلامي يلغى وقد عمد الشاعر العباسي في هجائه إلى تصوير حالة مهجوه ببراعة فكأنه أراد التفنن في إيراد لوحات ساخرة تثير في نفس المهجو الغضب وتصبح لدى من يسمع هذا الهجاء لوحة نادرة فيحفظها ويرددها، وهذا ما أراده الشاعر وهو الحط والتقليل من شأن مهجويه ، وقد برع أبو نؤاس في هذا الميدان كما في غيره في رسم صور ساخرة لبعض مهجويه ، يقول أبو نؤاس في هجاء احدهم :

قل لبني الاشعث لن تصلحوا ... باللوم عندي أمر عباسِ

حتى تردوه إلى ربه ... يطبعه خلقاً من الرأسِ

الوم عباساً على بخلهِ ... كأن عباساً من الناسِ

وإنما العباس في قومه ... كالثوم بين الورد والآس[52]

ويعجب أبو نؤاس من أن عباساً هذا من سنخ الناس وكان استبعده منهم في البيت الثالث ثم تتضح معالم هذه الصورة الساخرة في البيت الرابع لتكتمل هذه اللوحة فيشبه مهجوه بالثوم بين حديقة من الورود والياس ولك أن تتخيل مع الشاعر هذا المعنى فقد جاد في هجائه هذا، وهو في مكان أخر يهجو الفضل الرقاشي فيقول:

أمات الله من جوع رقشاً ... فلولا الجوع ما ماتت رقاش

ولو أشممت موتاهم رغيفاً ... وقد سكنوا القبور إذا لعاشوا[53]

فأي صفة تميز بها هؤلاء القوم وهل لأحد أن يموت من شدة البخل جائعاً . ويتعرض أبو العتاهية للأحمق فيرسم له صورة ساخرة فيشبهه تارة بالثوب البالي الذي ما أن رفعته من جانب حتى خرقته الريح من جانب أخر، وتارة أخرى يشبهه بالزجاج الذي تناثر فلا يمكن له أن يجمع . فيقول:

احذر الأحمق أن تصحبه ... إنما الأحمق كالثوب الخلق

كلما رقعته من جانب ... زعزعته الريح يـ وماً فانخرق

أو كصدع في زجاج فاحش ... هل ترى صدع زجاج يلتصق

فإذا عاتبته كي يرعوي ... زاد شراً أو تمادى في الحمق[54]

وربما تصل الرغبة في الهجاء أن يهجو الشاعر نفسه ، ومثلما فعل الحطيئة في الجاهلية فقد هجا أبو دلامة نفسه ورسم لنفسه ماتميز به من طباع أخلاقية فتراه يقول :

إلا ابلغ لديك ابا دلامة ... فلست من الكرم ولا كرامة

جمعت دمامة وجمعت لؤما ... كذاك اللؤم تتبعه الملامة[55]

ويمضي كذلك دعبل الخزاعي في رسم هذه الصورة الساخرة في الهجاء الأخلاقي فهو يصور رجلاً بخيلاً بأبشع صوره فيقول يقول فيه :

اتقفل مطبخاً لاشيء فيه — من الـدنيا تـخاف عليه اكل

فهذا المطبخ استوثقت فيه — فما بـال الكنيف عليه قفل

ولكن قد بخلت بكل شيء — فحتى السلح منك عليك بخل[56]

وقد برع المتنبي في رسم هذه اللوحات الساخرة فقد هجا كافور الاخشيدي وبالغ في استعارة كل ما يقلل من شأنه ويهينه به أمام الناس ، يقول المتنبي في داليته المعروفة :

اولى اللئام كويفر بمعذرة — في كل لؤم وبعض الغدر تفنيد

وذاك إن الفحول البيض عاجزة — عن الجميل فكيف الخصية السود[57]

يقول الدكتور ايليا الحاوي في تحليله لهذين البيتين ، هذه الأبيات الأخيرة تشمل على ملامح المأساة، وقد قذفها المتنبي في هذه الصورة المتوالية حتى استنفذ جميع ما في نفسه من احتقار لذلك الرجل الذي تمثل بالمتنبي في مسخ أنساني[58]. ولا يختلف ذلك الشاعر عن معاصريه في حشد هذه الصور للإيقاع بالمهجو وذكر العيوب الأخلاقية فيه بصورة ساخرة إذ يقول في هجائه لعيسى :

يقتر عيسى على نفسه — وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره — تنفس من منخر واحد[59]

ويذهب ابن الرومي إلى ابعد من هذا في هجائه لخالد القحطبي فيقول :

يا مستقر العار والنقص — أغنت مخازيك عن الفحص

أنت الذي لست لسوءاته — ولا لنعمى الله من محص

إلى أن يقول

مصائب الناس وسؤاتهم — قد جمعت لي منك في شخص[60]

وهكذا نجد أن الشعراء العباسيون قد تفننوا في تصوير مهجويهم بهذا الصور الساخرة فأتخذ الهجاء في العصر العباسي طابعاً جديداً في الهجاء الأخلاقي، وهو عدم الصدق في ذكر العيوب والتأثر في الطابع الحضاري الجديد في إيراد الصور والمبالغة في استخدام اللفظ المعيب وذكر كل فحش والإسفاف في إيراد كل معنى معيب .

3ـ الصورة الساخرة في الهجاء السياسي

كان لاختلاف المذاهب والفرق السياسية في العصر العباسي أثراً بارزاً في تطور فن الهجاء ، فلابد أن ينتصر الشعراء لمذاهبم وفرقهم السياسية وقد أصبح الهجاء عند بعض شعراء المذاهب الدينية والسياسية يستخدم للدفاع عن تلك المذاهب وتأييد حقها والدفاع عن وجه الخصوم وتفيد حجمهم والرد عليها[61].

وفي مجال الهجاء تناول الشعراء مهجويهم بأقبح وأبشع الصور ، ولم تكن هذه الصور الساخرة حول الفرق السياسية المتنازعة في الحكم فحسب وإنما عمد الشعراء إلى هجاء أعداء العرب ومن كانت لديهم خصومة معهم ، فقد هجا أبو فراس الحمداني الروم . وقال فيهم :

أما من أعجب الأشياء علـج ... يعرفني الحلال من الحرام

وتلتفه بطارقة قسوس ... تبارى بالعثانين الضخام

لهم خلق الحمير فلست تلقى ... فتى منهم يسير بلا حزام

أناجي كل طبل هر شمى ... عريض الذقن مصادق الكلام(62)

فهو يتعجب كيف يتصدى هؤلاء القوم لمحاجة المسلمين وفيهم البطارقة على لحى طويلة ، وقد يخيل فيها شبح التيوس ، وعلى ألبسة ذات أحزمة تصور فيها خلق الحمير ، وقد هجا بعض الشعراء قسماً كبيراً من القادة والأمراء ومن ذلك هجاء ابن الرومي لأبي الصقر :

عجب الناس في أبي الصقر إذ قـ ... ـد بعد الإجارة الديوانا

ولعمري ما ذاك أعجب من ان ... كان علجاً فصار من شيباتا

ان للجد كيمياء اذا ما ... نال كلباً اصابه انسانا

يخلق الله ما يشاء كما شا ... ء اذا شاء كائناً ما كانا(63)

وقد بلغ الهجاء السياسي عند دعبل مبلغاً عظيماً سلك فيه سبيل اقرأنه من الشعراء العلويين فقد هجا هارون الرشيد والمأمون والمعتصم وإبراهيم ابن المهدي وقد صور المعتصم في هجائه إياه بالكلب بل اختار له صورة تتردد في الذهان وتحفظها العامة ممثله بكلب أصحاب الكهف قائلاً :-

بكى لشتات الدين مكتئب صب ... وفاض بفرط الدمع من عينه غرب

وقام أمام لم يكن ذا هداية ... فليس له دين وليس له لب

وما كانت الإنباء تأتي بمثله ... يملك يوما أو تدين له العرب

ولكن كما قال اللذين تتابعوا ... من السلف الماضين إذ عظم الخطب

ملوك بي العباس في الكتب سبعة ... ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعةٌ ... كرامٌ إذا عدوا وثامنهم كلب

وأني لأ علي كلبهم عنك رفعةً ... لأنك ذو ذنبٍ وليس له ذنب(64)

فهذا التصور يعد في غاية السخرية والتهكم وتقبيح حال المهجو فما بالك إذا كان المهجو خليفة ، و إلى مثل هذا يذهب أبو نؤاس في هجائه فانه لا يقف أمامه ما يمنعه ً فقد بلغ كثيراً في هجائه وأن لغته في هجوه السياسي اجزل وأحكم من لغة في سائر هجائه ولا سيما ما كان منه دعابا فانه لايخلو من لين وإسفاف وتكلف الصنعة

4- الصورة الساخرة في الهجاء الديني :

اختلفت الآراء والأهواء وتعددت الفرق الدينية في العصر العباسي شأنها في ذاك شأن الفئات السياسية وقد أصبح لكل أصحاب فكر أو مذهب مناصرون وأعداء وتعددت الآراء الشخصية المنفردة في العقائد والأهواء كآراء أبي العلا المعري وغيره،وكان الشعراء نصيب في أهذا الجانب للتعبير عن أفكارهم وآرائهم فجاءت هذا

الآراء بصورة ساخرة عبرت عن حقيقة ما كان يدور في فكر هؤلاء الشعراء وتمثلت هذه الصور في فن الهجاء فقد حدث النقاش والهجاء انبعثت منه تلك الصور التي أوردها الشعراء وكان لأبي العلاء المعري النصيب الأوفر منها فهو يطرح أفكاره بأسلوب هجائي ساخر ويقول: مبيناً رأيه في الدين .

عجبت لكسرى وأشياعه — وغسل الوجوه ببول البقر

وقول النصارى إلــه يضام — ويظلم حياً ولا ينتصر

وقول اليهود اله يحب — رشاش الدماء وريح القتر

وقوم اتو من اقاصي البلاد — لرمي الحجار ولثم الحجر

فوا عجبى من مقالاتهم — أيعمى عن الحق كل البشر[65]

فهو يصور كل أصحاب ملة في حال يختارها لهم وقد عرفوا بها وهو يتصور بأن الناس جميعاً قد ظلوا وهو صاحب الرأي السديد ولم يكن أبو العلاء وحيداً في بث هذه الأفكار بالصورة الساخرة بل سايره بشار ابن برد الذي كانت له جرأة عجيبة في مثل هذه السخرية فهو يقيس كما قاس إبليس فيقول :

إبليس خير من أبيكم آدم — فتنبهوا يامعشر الفجار

النار عنصره ,وآدم طينةٌ — والطين لا يسموه سمو النار[66]

وهكذا نجد الشعراء يبثون أفكارهم ومعتقداتهم بصورة جديدة لم تكن مألوفة في شعرنا العربي وهذا الأمر يعد جزءاً من الثقافة الجديدة بهذه المرحلة

5- الصورة الساخرة في الهجاء الاجتماعي :

معلوم أن العصر العباسي شهد تداخلا في الأجناس فقد تعددت طبقات المجتمع وتبدلت الحياة الاجتماعية فنشأ الصراع بين العرب والموالي ونهضت الشعوبية تلعب دوراً المعروف وكثر وجود الرقيق وفشا امتلاك الجواري والغلمان وشاع الشراب ومجالسه. وولدت الزندقة وشاعت الثقافة الفارسية وانقلبت الأوضاع الاجتماعية فنشا الهجاء الجديد للأوضاع والحياة الجديدة وأن اغلب الشعراء قد شكوا الدهر وهجوه بصور ساخرة مثلت رؤيتهم للواقع والحياة الاجتماعية المعقدة ، ومن هذه الصور قول المتنبي

ودهر ناسه ناس صغار — وان كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم — ولكن معدن الذهب الرغام

أرانب غير أنهم ملوك — مفتحة عيونهم نيام[67]

وقد صور بعض الشعراء طبيعة الحياة الاجتماعية التي كان يعيشها الفرد وما كان يعاني من عسر في معيشته، فقد صور الشعراء هذه الحياة بصورة ساخرة مثيرة عكست واقعهم وأوضاعهم حتى في داخل بيوتهم، فهذا أبو الشمقمق يهجو الفقر ويشكو منه قائلاً :

برزت من المنازل والقباب — فلم يعسر على احد حجابي

فمنزلي الفضاء وسقف بيتي — سماء الله أو قطع السحاب

فـأنت إذا أردت دخلـت بيتـي على مسلما من غير عـابِ

لأني لـم أجد مصـراع باب يكون من السحاب إلى التراب(68)

ففي هذه الأبيات تصوير بارع لواقع كان يعيشه البعض في العصر العباسي وربما يتجاوز الشاعر ليصور الناس جميعاً بأبشع الصور الساخرة ساخطاً عليهم ثائراً على الواقع فهذا أبو العلاء يبرز صورة ساخرة غريبة للناس جميعاً جاعلاً أصلهم من الزنى مستفيداً من إحدى الروايات التي تذكر إن آدم عليه السلام زوّج ابنتيه لابنيه، فكان الزنى الأول برأي أبي العلا ، ففي هذه الصورة يقول : ـ

وإذ ما ذكرنا أدمـا وفـعاله وتـزويجه بنـتيه لابنيه في الخنا

علمنا بأن الناس من نسل فـاجر وان جميع الخلق مـن عنصر الزنـا(69)

وصور الشعراء أحوال بعض الفئات من المجتمع بصورة مثيرة للسخرية فقد رثا أبو الشمقمق حال المعلم وقارن بين الخبز الذي يأكله وخبز البقال فيقول :

خبـز المعلـم والبقـال متفـق واللـون مختلف والطعم والصور(70)

وبهذا نجد الشعراء يعكسون واقع الحياة الاجتماعية من خلال رسمهم لوحات تمثل طبيعة حياتهم وتعاملاتهم فضلاً عن آرائهم بهذا الواقع الاجتماعي الجديد .

المبحث الثالث
الخصائص الفنية والأسلوبية

في كل مجتمع جديد تنشأ عادات وتقاليد جديدة تبعا لمدى تقبل المجتمع لتلك العادات والتقاليد،وفـي ذلك يتأثر الأدب بكل أبعاده وصوره فقد يكون الشاعر الوجه الأخر الذي يمثل المجتمع ، فيحاول أن يظهر إبداعاته في مجال الشعر وقد عمد الشعراء العباسيون إلى تصوير كل ما يدور في مجتمعهم آنذاك، ويأتي هذا التصوير بعد أن اختمر في أذهانهم الواقع الفعلي الذي نشا حولهم ، فتولدت صورهم بعد ذلك معبرة عن حقيقة ملموسة فـي الأدب وفي المجتمع بشكل عام، (إذ لابد أن أشكال الصورة تتكون قبل ظهور الصـورة الفنية بمعنـاها الحقيقي بزمن طويل وذلك بالضبط مثلما تتولد اللحظة الاستيتيكية خلال ممارسة الإنسان عمله قبل ولادة الفن) (71).وكان لابد لهذه الصور أن تتميز بخصائص فنية وأسلوبية جديدة طالما إن الصورة أصبحت مظهراً من مظاهر التجدد في الشعر وهنا يمكن أن نلتمس من هذه الخصائص التي تميزت بها قصيدة الهجاء في العصر العباسي وهي :

1- استخدام الجانب العقلي :

لقد كان للحركة الفكرية والثقافية أثرها في الأدب العباسي ، وقد عمد الشعراء إلـى إدخال المظاهر العلمية والفكرية في قصائدهم فقد تغلغل الفكر إلى الأدب وأصبح مزية هامة تميزت بها القصائد الجديدة، وقد اخذ الهجاء دوره في استعارة الجوانب الفكرية وتوظيفها في القصيدة ويلاحظ ان بعض الشعراء استخدم هذا الجانب في صوره فتفنن أيما تفنن في إيراد هذه الصورة بما يثير السخرية من المهجو، وبرع في هذا الجانب ابن الرومي فقد وظف هذا الجانب فـي صوره الساخرة ليبلغ مراده وهو الإيقاع بالمهجو ونعته بأسوأ ما يمكن أن ينعت به إنسان،يقول ابن الرومـي مستخدماً هذا الجانب من التصوير

لو تلففت فـي كساء الكسائي وتلبست فـروة الغراء

وتخـللتَ بالخليل وأضحى سيبويه لديك رهن سباء

وتكونت مـن سواد أبي الاسـ ـود شخصـاً يكنى ابا السوداء

لابى الله ان يعدك اهل الـ علم إلا من جملة الأغبياء[72]

فقد استعان ابن الرومي بمعلوماته عن جملة من العلماء كي يرمي مهجوه بالجهل فما كان له إلا أن يعرض هؤلاء العلماء جملة ويحيل صورة مهجوة الى صورة قبيحة جداً وإذا كان آخذاً من علم كل هؤلاء وأصبح غبياً بهذا الشكل ،فلا غرو انه يستحق هجاء الشاعر ، وهو في مكان أخر يقول :

عجب الناس من أبي الصقر إذ ولـ ـلي بعد الاجارة الديوانا

ولعمري ماذاك أعجب من أن كان علجاً فصار من شيبانا

أن للجد كيمياء إذا ما مس كلباً احاله انساناً

يفعل اللع بما يشاء كما شا ء متى ما شاء كأننا ما كانا[73]

فهو في هجائه هذا لإسماعيل بن بلبل بميله من مقام إلى مقام ومن صورة إلى صورة حتى ليعيد أصله إلى الكلب فيجعله أنساناً بعد ذلك وكذلك يفعل الله في معجزاته، ويمضي بشار بن برد في هذا السبيل فقد هجا حماد عجرد وهو يتبرأ من الزندقة فيقول :

يا أبن نهبى رأس علي ثقيل واحتمال الرؤوس خطب جليل

ادع غيري إلى عبادة الاثنيـ ن فأني بواحد مشغول

يا ابن نهبى برئت منك الى الله جهاراً وذاك مني قليل[74]

وقد رد حماد عجرد البيت فجعله :

ادع غيري إلى عبادة الاثنيـ ن فاني عن واحد مشغول[75]

ومن تأثر الهجاء بالجانب العقلي وإدخال معالم الفكر في الصورة الساخرة ما قاله حماد عجرد في احد أصحابه وهو حفص بن أبي بردة وقد شبهه بعيوب العروض والنحو إذ يقول :

لقد كان في عينيك ياحفص شاغل وأنت كثيل العود عما تتبع

فتتبع لحناً في كلام مرشق ووجهك بني على اللحن اجمع

فأذناك اقواء وأنفك مكفأ وعيناك ايطاء فأنت المرفع[76]

2- استخدام الألوان البلاغية والبديعية :

لعل الطابع العام الذي كان يسود النقد في العصر العباسي قد غلب على معظم أغراض الشعر، وكان لابد أن ينال الهجاء نصيب من هذا النقد، ومعلوم أن اهتمام النقاد كان بالبلاغه واستخدام الأساليب البديعية ، وقد ظهرت كتب النقد التي تتناول هذا الجانب، والذي يهمنا من الأمر هو توظيف الشعراء الأساليب البلاغية في صورهم الساخرة. فقد تفنن الشعراء في استخدام هذه الأساليب ليجعلوا من صورهم الساخرة لوحات كاريكاتورية يكون لها الأثر البالغ في الإيقاع بالمهجو وإيراد كل ما يشوه صورته أمام الناس وقد عرف عن بعض الشعراء المبالغة في استخدام التشبيهات، فمن الغريب فيتلك التشبيهات ما ورد في هجاء ابي تمام لعياش لما يئس من عطائه ،إذ يقول

محت نكبـاته سـبل المعاني وأطفى لسيله سـرج العقول

رجاء حـل من عرصات قلبي محل البخـل من قلب البخيل

فأجدى موقفي بـشـذاك جدوى وقوف الصف في الطلل المحيل

وأعكفت المنى في ذات صدري عكـوف الدمع في الخد الأسيل(77)

فهذا شعر لايفهم إلا بعد تدبر وأعمال فكر ، فالغرابة هنا في التشبيه والتعمق في الخيال وهذا ماعرف عن أبي تمام في اغلب قصائده ومن الأساليب البلاغية التي استخدمت فـي الصورة الساخرة مايعرف بحسن التعليل حيث أن الشاعر من هؤلاء إذ أراد هجاء احد تفطن إلى صفة من صفاته القبيحة فحللها وعلل أسبابها تعليلاً هو في ظاهره دفاعٌ عنها وثناء عليها، وهو في حقيقتة إمعان في تقبيحها وإيراد حقيقتها بصورة ساخرة داعية للاستهزاء ومن ذلك هجاء حماد عجرد لحديث ابن أبي الصلت الحنفي إذ يقول فيه :

حديث ابو الصلت ذو خبرة بما يصلح المعدة الفاسدة

تخـوف تخمة اضيافه فعودهم اكـلة واحدة(78)

فقد جعل حماد صدور أبياته وكأنها تعليل لما سيورده في أعجازها وهذا الهجاء في ظاهره جد وفي باطنه هزل وهو ميزة خاصة تميز بها الهجاء في العصر العباسي وقد ورد عن الكثير من الشعراء العباسيين ، فقد تفنن به أبو نؤاس وذلك في هجائه لجارية اسمها بنان حيث يقول :

وجـه بنان كأنـه قـمر يلوح في لـيلة الثلاثين

والخد من حسنه وبهجته كطاقة الشمس في الرياحين

ومبـادر في جبينـها نسيمٌ في الطيب يحكي مبازل العين

والفم في ضيفه إذا أبسمت كأنـه قصعة المساكين

لهـا ثنايا ببهجتها وحسنها السن الموازين

وحسبك الحسن فـي ضفائرها مثـل الشماريح في العراجيين

والجيد زين لمن تأمله أشبـه شيء بجيد تنين(79)

وهكـذا نـجد أن الشاعر يـوحي فـي ظاهر أبياته انه جد وما أن أكلمت البيت حتى تجد الرسم الساخر للمهجو وقد تناوله بأقبح الصور وتجد أبا نؤاس يعمد إلى استخدام هذا الأسلوب في موضع اخر فقد هجا إسماعيل بهذا الأسلوب بعشرة أبيات ومثله فعل حماد عجرد في هجائه لمحمد بن طلحة إذ يقول .

رزق امرء فـي داره قـرة لـه حيـاء ولـه حسير

يكـره أن يتخم اضيـافه إن أذى التـخمة محـذور

ويشتهي أن يـؤجـروا عـنده بالصـوم والصالح مأجـور(80)

ولم يقف الشعراء عند هذا فحسب بل استخدموا في صورهم الساخرة أنواع أخرمن محاسن الكلام ومنها الرجوع وهوان يقول الشاعر شيئاً ويرجع عنه كقول بشار :

نبئت فـاضح أمه يغتابني عنـد الأمير ، وهل عليه أمير[81]

وقد فتح مسلم بن الوليد بابا في البديع زاد به على ما ورثه من إسلافه وهو ابتكار المعاني الجديدة والنظم على الطريق الجديد فيها وقد تميز عمن سبقه باستخدام البديع في توليد المعاني وإظهارها بحلة جديدة تتناسب مع أغراضه ومن استخداماته في البديع قوله.

أما الهجاء فدق عرضـك دونه والمـدح عنك كـما علمت جليل

فأذهب فأنت طليق عرضك انه عرض عززت به وأنت ذليل[82]

لـقد لاحظنا من خلال ما مر بنا من استشهادات بأبيات العديد من الشعراء بأن الأساليب البلاغية قد دخلت ونفذت إلى الصورة الساخرة في الهجاء وهذا أمر لابد منه لان الشاعر عادة يستلهم أساليبه من السمة البارزة للعصر أو من الذوق العام وقد وجد الشعراء أن استخدام مثل هذه الأساليب ما يميز شعرهم فعمد إلى استخدامها بل وقد بالغ فيها بعضهم من أمثال أبي تمام ومسلم وأبي نواس وسواهم .

3- سهولة الأسلوب وخفة الأوزان :

لقد كان لتغير الحياة في العصر العباسي الأثر البالغ في تغير الأساليب وخصوصاً في الشعر فقد أصبح الشاعر العباسي يميـل إلى السهولة في الأسلوب ويعمد إلى استخدام المقطوعات القصيرة التي تلائم الغناء وتناسب أغراض وأساليب الشعر الحديثة إذ كان الشعراء يقصدون في ذلك الخفة والإطراب إذ إن البحور الطويلة لا تصلح في الغالب إلا إلى الإنشاد في المحافل ومعروف أنـها تثير المحافل ومعروف إنها تثير الحماسة وتميـز الشاعر من ناحية قوة الأسلوب ورصانة التعبير وقد خرجت دائـرة الشعـر في العصر العباسي عن هذه الأساليب وابتعد الشعراء عن المحافل التي كانت تدور في عكاظ والمربد .بل أن الشعـر صار يسلتذ به في المجالس ويتداوله العامة لخفته وبغنيه المغنون والقيان، ومن ذلك كثير، ونجد في ديوان أبي نؤاس ما يبرز هذه الميزة فهو يقول في هجائه سليمان بن سهل لما ولي الزاب :

سيـروا إلى ابعد منتاب قـد ظهر الـدجال بالزاب

هـذا ابن نيبخت له إمرة صـاحب كتـاب وحـجاب[83]

وقد عمد الشعراء في صورهم الساخرة إن يستخدموا ابسط الأساليب لكي يتدالوها العامة واستخدموا الألفاظ التي يتداولها الناس في حياتهم العامة البسيطة ومن ذلك الطراز هجاء إبان بن حميد اللاحقي رجلا من ثقيف كان جيرانه يقال له محمد بن خالد وكان عدوا لأبان فتزوج بنت عبد الوهاب الثقفي إذ كانت موسرة فقال أبان يهجوه ويحذرها منه ليفرق بينهما :

لما رأيت البـز والشـارة والفـرش قد ضاقت به الحارة

واللوز والسكر يرمـى به من فـوق ذي الدار وذي الدارة

واحظروا الملهين لم يتركـوا طبلاً ولا صاحب زمارة

قلت لماذا . قيل اعجوبـه محمد زوج عمارة

لا عمر الله بـها بـيه ولا راه مـدركا تارة

ماذا رأت فيه؟ ومـاذا رجـت وهي من النسوان مختارة

اسود كالسنور ينسى لدى النـ ... ورا أو محراك قبارة

يجري علـــى أولاده خمسة ... إن أفرطوا في الأكل سيارة

ويحـك حزي واعصبي ذاك بـي ... فهذه أختك فراره[84]

فنحن نرى في هذا الأسلوب إيراد الألفاظ السهلة التي يمكن ان تسري على كل لسان وهذا أمر طبيعي لما تميز به العصر العباسي بل المجتمع البغدادي بالذات من تداخلات اجتماعية ومنتديات اللهو والغناء، ونجد ابن الرومي يستخدم هذا الجانب في هجائه إذ يقول في هجاء أبي حفص :

نحن تركناهُ قصيراً اصلعا

من بعد ما كان طويلاً أفرعا

مازال يكسوه إذا ما استصفعا

صفاً . . . . حتى قرّعا[85]

ومن الاستخدامات اللطيفة للأوزان الخفيفة في الصورة الساخرة ما ورد عند أبي نؤاس في قوله

إذا ماوطىء الأمر ... د والعلم حصى المسجد

فقد حل لنا عقدا ... من التكة تستقعد

فأن كان عروضياً ... فقو لوا : سجد الهدهد

وان أعجبه النحو ... فهذا لنا أجود

وان مال إلى الفقه ... فللفقه له أفسد

وان كان كلاميا ... فحرك طرف المقود

وميله إلى الجد ... ففيه قرب من يبعد[86]

وقد خزج بعض الشعراء عن الأوزان العروضية ليتسنى لهم رسم الصورة التي أرادوا من خلالها أن ينعتوا مهجويهم وينالوا منهم بأبشع الصور ومن هذا خروج أبي العتاهية في بعض أشعاره عن العروض من مثل قوله:

هم القاضي بيت يطرب ... قال القاضي لما عوقب

ما في الدنيا إلا مذنب ... هذا عذر القاضي وأقلب[87]

وبعد فقد لاحظنا إن الشعراء عمدوا في أشعارهم أن يستخدموا هذه الأساليب الحقيقية والبحور المجزوئه لكي تلائم ما يأتون به من صور ومعاني مبتكرة وهي في الحقيقة لابد أن تكون مرآة تعكس طبيعة الواقع الأدبي والاجتماعي الذي كان سائداً في العصر العباسي .

4- المبالغة في إيراد المعاني والألفاظ البذيئة :

إن طبيعة المجتمع وانفتاحه في العصر العباسي وكثرة ما كان في بغداد من أماكن اللـهو والمجون وابتعاد الناس عن روح الإسلام جعل من الشعراء أن يبادروا إلى استخدام كل لفظ مشين ومعنى ترفضه الآداب العربية الأصيلة ، فقد تحول الهجاء بعد أن كان مناحرات بين الخصوم[88]. إلى هجاء فاحش ليس القصد منه الانتقاص من شخصية المهجو فحسب وإنما مال الشعراء العباسيون إلى إيراد كل لفظ ناب تأنف منه الطباع وهذا الأمر يبدو واضحاً جداً في اغلب دواوين الشعراء وقد عرف عن بعضهم ميلهم في المبالغة بذكر الأعضاء وإيراد الفحش في ثنايا أهاجيه، ومن هؤلاء الشعراء البحتري والذي كان هجائه(فاحش متعهر، بذيء الألفاظ)[89]. كذلك كان أبو نؤاس إذ لا يقف أمامه ما يردعه عن قول الفحش وإيراد كل معنى فاحش وإذا اخترنا من أهاجيه اقلها فحشا سنجد أنفسنا أمام قوله: -

فكيف بالحج لي مادمت منغمساً في بيت قواده أو بيت نباز[90]

وإذا أردنا أن نختار من ديوان ابن الرومي ما يشير إلى الألفاظ البذيئة، سنجد أنفسنا عند أخفها وقعاً وذلك في قوله هاجياً أبا حفص : -

لا تحسب الشيخ اباحفصٍ يعيش من أقلامه الصلّعِ

لكن من الله ومن زوجه تستدخل الأصلع في المخدع

ليست بذي باسٍ ولكنها قوّامة الليل على أربع [91]

المصادر

1- أدباء العرب في العصر العباسية ، بطرس البستاني ، دار المكشوف ، ط6، 1968 .
2- الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، دار الكتب العلمية ، (د، ت) .
3- بشار بن برد ، دراسة وشعر ، محمد الصادق عفيفي ، دار الرائد العربي ، بيروت ، 1983.
4- البيان والتبيين ، الجاحظ تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1960.
5- تأريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط3 ، القاهرة ، 1966.
6- تأريخ الأدب العربي ، بلاشير ، ترجمة : الدكتور إبراهيم الكيلاني ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1961.
7- تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، نقله إلى العربية ، عبد الحليم النجار ، دار المعارف ،ط2 ، مصر، 1961.
8- حماسة الظرفاء ، عبد الله بن محمد الزوزي ، تحقيق : محمد رجب ، دار الحرية للطباعة ، 1978.
9- الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ط1 ، مصطفى البابي الحلبي ،القاهرة - (د.ت).
10- ديوان ابن الرومي - ضبط نصوصه وعلق على حواشيه وقدم له : د. عمر فاروق الطباع دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ط 1: 2000 ديوان المتنبي .
11- ديوان أبو نؤاس ، شرح وتقديم ، علي فاعور ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، 1987.
12- ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، جمعه وقدم له وحققه عبد الصاحب عمران الدجيلي دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط2 ، 1972.
13- العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، (د.ت).
14- الشعر في بغداد ، احمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ط2، بغداد ، 1991.
15- شعراء عباسيون ، غو ستاف فون غربناوم ، مكتبة الحياة ، بيروت ، 1959.
16- الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري ، علي البطل ، دار الأندلس ، ط1، 1980.
17- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ، (د. ت).
18- في الأدب العباسي ، محمد مهدي البصير ، بغداد ، (د. ت).
19- من تأريخ الأدب العربي ، م2،ق3 ، ترجمة : جميل نصيف التكريتي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1994 .
20- نماذج من النقد الأدبي وتحليل النصوص ، ايليا سليم الحاوي ، دار الكتب اللبناني ، ط2 (د.ت).
21- الهجاء الهجاءون في الجاهلية ، محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية ، ط3 ، بيروت ،1970.
22- الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ، محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب ، في مصر (د.ت).

الهوامش :

1- ينظر الصورة في الشعر العربي ، غلي البطل - 192 .
2- الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، محمد محمد حسين ، 18 .
3- المصدر نفسه ، 26.
4- الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، 23
5- البيان والتبيين ، الجاحظ ، 1/170
6- الصورة في الشعر العربي ، 192 .
7- الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، 6 .
8- تأريخ الأدب العربي 1/46 .
9- الشعر في بغداد ، احمد عبد الستار الجواري ، 259.
10- الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ، 60 .
11- الهجاء والهجاء في الجاهلية 206 .
12- الهجاء والهجاءون في الجاهلية : 206 .
13- المنافقون : 63
14- الهجاء والهجاءون الجاهلية :207 .
15- ديوان جرير :362.
16- ينظر تأريخ الأدب العربي بلاشير : 2/ 307.
17- الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام : 136.
18- م . ن : 297
19- م . ن : 128
20- العمدة في محاسن الشعر مراد به ونقده ، ابن رشيق القيرواني : 170
21- ديوان جرير :162 .
22- العمدة :170 .
23- كتاب الحيوان - الجاحظ : 5/174 .
24- أدباء العرب في الاعصر العباسية - بطرس البستاني - :48 .
25- تأريخ الأدب العربي - بلاشير : 2/154
26- في الأدب العباسي - محمد مهدي البصير : 146 .
27- تأريخ الأدب العربي : 2/12 .

28- ظ : أدباء العرب في الاعصر العباسية : 185 .
29- تأريخ الآداب العربي :2/26 .
30- ظ: أدباء العرب في الاعصر العباسية : 118 .
31- في الأدب العباسي :147 .
32- ظ: أدباء العرب في الاعصر العباسية :118.
33- م . ن : 246
34- تأريخ الأدب العربي : 2/454
35- في الأدب العباسي : 288
36- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ شوقي ضيف : 212
37- ظ : الشعر في بغداد ـ احمد عبد الستار الجواري : 262 .
38- ظ : الهجاء والهجاؤن في الجاهلية : 23 .
39- ظ : الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام : 97.
40- من تأريخ الأدب العربي ، د. طه حسين : 48.
41- ديوان ابن الرومي : 3/ 214
42- م . ن : 2/222
43- م . ن 3/423
44- ديوان المتنبي : 4/ 253 ـ 254
45- ديوان ابي نؤاس : 285
46- ديوام ابي نؤاس :563
47- م . ن 279
48- م . ن 279
49- ديوان ابن الرومي
50- م . ن : 2/ 114
51- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني :12/153
52- ديوان أبي نؤاس :520
53- م . ن : 528
54- حماسة الضرفاء ـ الزوزني : 131
55- م . ن :131
56- ديوان دعبل الخزاعي : 260
57- ديوان المتنبي : 2/
58- ظ : نماذج من النقد الأدبي : 66
59- ديوان المتنبي